الدكتورة ليئة كينبرج كتاب الموت و كتاب القبور لابن أبي الدنيا، تحقيق ودراسة، سلسلة منشورات الكرمل رقم ٢، جامعة حيفا ١٩٨٢، مطبعة السروجي ـ عكا . مقدمة، نصوص، فهارس، قائمة مراجع، ١٣٢ صفحة مع مقدمة بالانجليزية .

ـ ١ ـ

ثمة أهمية كبيرة لصدور رسالتي كتاب الموت و كتاب القبور لابن أبي الدنيا في كتاب واحد، وخصوصا فيما يتعلق ببحث نصوص العصور الوسطى وتوضيح آراء المسلمين في تلك الفترة، والى حد ما في يومنا هذا أيضا، حول مسألة الموت : ما هي التشبيهات التي تسبغ عليه في أقوالهم لغويا وخلقيا، وما هي الصورة التي رسموها له كتعبير انساني، وكتعبير أدبي في بعض الأحيان ؟ وهكذا فاننا لا نعنى بالناحية الدينية فقط، وانما نعنى في الأساس بالبحث في "الأدب" الديني أيضا .

ومما يبعث على الرضى أن تقوم الدكتورة ليئة كينبرج ببحث هذه النصوص و "استعادتها" على حد تعبيرها، وأن تبادر جامعة حيفا كذلك الى نشر هذا الكتاب ـ ونحن هنا نغتنم هذه الفرصة كي نحاول بلورة بعض المعطيات عن تصوّر الموت في الأدب الاسلامي كقضية عامة، نظرية وأدبية معا . ان محاولتنا توضيح هذه القضية، كما نراها نحن، لا تعني بالذات نقدا لمقدمة الباحثة التي تستحق الثناء من نواح عدة . اذ من الجدير بنا فعلا أن نعرض وجهة نظرنا أولا، ثم ننصرف بعد ذلك الى ابداء رأينا في بعض الأمور الثانوية التي تتعلق بالكتاب المذكور .

ـ ٢ ـ

في حضارات وأديان كثيرة يعتبر موت الانسان انتقالا فوريا الى الحياة في الآخرة . فكل انسان يموت اذ يحين أجله، وترتفع روحه بعد موته مباشرة الى عالم آخر، تمثل فيه أمام القضاء ويتقرر مصيرها، فاما الجنة واما النار . أي ان مواعيد القضاء ودخول الآخرة هي كثيرة بعدد من يموت، كما ان كل موعد للقضاء هو موعد شخصي . وفي مثل هذه الأديان لا تشكل بقايا الانسان في القبر أية مشكلة . فالجميع

يرون أن هذه الرمم يجوز استخراجها عمدا أو العثور عليها خلال الحفر دون قصد ، كما يمكن القاؤها وبعثرتها باعتبارها بضعة غرامات هزيلة بقيت من العظام بعد سنين ... بل ان هناك من يعمدون الى احراقها بعد الوفاة رأسا . ورغم ذلك فان القبر في بعض الحضارات يمثل الصلة بين الأحياء والأموات ولا يجوز تدنيسه او اخراج ما فيه، وان كانوا على يقين، في الأغلب ، أن الروح ذاتها لا علاقة لها بتراب هذا العالم وانما ترتفع الى عالم آخر ... ان كثيرين ممّن يؤمنون بذلك يذكرون اقاربهم وأصحابهم الموتى ويضيفون قائلين : "المرحوم فلان ... مقامه الجنّة" أو ما شابه . صحيح أن الامر مختلف في الاعتقاد الشعبي ، عند أبناء تلك الأديان التي تؤمن بدخول كل متوفى الى الآخرة بشكل شخصي (بل ان هناك من بين أبناء هذه الأديان من يحسب ، تبعا للاعتقاد الشعبي ، أنّ المتوفى موجود في القبر ، وقد يخرج أحيانا من القبر ، وهكذا ...) . وهناك أيضا من يدمجون فكرة القيامة لكل البشر مع القول بأن الأرواح تصعد الى الجنة (أو تهبط الى جهنم) بعد الموت مباشرة . فطريقة دمجهم هذه معقدة (كما في الدين اليهودي) لا يجوز في هذا المجال شرحها بالتفصيل .

اما في الاسلام فيسود الاعتقاد بأن ليوم الدين موعدا واحدا يضمّ البشر جميعا . وبناء على ذلك فانه لم يسمح بعد لأي مؤمن بالدخول الى الجنة ولم يحكم على الأشرار بالنار أيضا .

ان الفكرة الدينية ـ الفلسفية وراء هذا الرأي لعميقة جدا : يموت كل انسان فيخرج بذلك من "نطاق الزمان" ، واذا كان خرج من نطاق الزمان فان "الانتظار" حتى يوم الدين وقيامة الموتى بالنسبة اليه يتلخّص في ثانية واحدة، بل لا تكاد تمر ثانية واحدة على وفاته حتى يستيقظ في يوم القيامة والحشر والنشر .

وهناك آيات في القرآن الكريم مؤداها الشعور (في الفترة الاولى من نزول الوحي على الرسول) بأن يوم الدين قريب جدا يتوعّد وينذر ... بل ان الشعور بوشك حلول يوم الدين يندرج في روح الاسلام حتى يومنا هذا ، ويمثل مشاعر كثيرين من الأبرار والصالحين على مدى التاريخ والأدب الاسلاميين . ولكن الفكرة الهامّة، حول الخروج من "نطاق الزمان" ، التي كان يجب أن يتحلى بها الايمان الخالص، لم يكن من الممكن استيعابها ، وذلك لأنها بالغة التجريد والتنظير بحيث لا يستطيع الانسان البسيط ادراكها : كيف نطالب هذا الانسان أن يتصور بعين روحه "خروجا

من نطاق الزمان حتى يوم الدين" ؟ كيف يستطيع أن يتخيل الموتى ــ موقتا ، حتى قيامة الموتى ؟ هل يستطيع المرء أن يتصور ، أصلا ، حتى الأنبياء مثل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد غير موجودين في مكان حاليا ؟

لهذا السبب لم يتطور الايمان بـ "الخروج من نطاق الزمان" ، الى حد الشعور بالقيامة الشخصية الفورية لكل متوفى ، ولكن تعبيرا قريبا من هذه الفكرة بقي وتمثل حتى في هذا الكتاب المذكور (ص ٣٦، بند ٣٥) : "من مات ــ فقد قامت قيامته" !

ــ ٣ ــ

لقد أخذ الناس يؤمنون ويتخيلون (وربما آمنوا دائما ثم أخذوا بصياغة التعبير الأدبي لهذا الايمان) كيف يعيش الموتى حاليا نوعا من الحياة . وقد تم تأكيد هذا الأمر في الأساس بالنسبة للأنبياء والصالحين الذين سمح لهم بالتمتع ، حاليا ، بجنة عدن متعة محدودة دون أن يكونوا فيها فعلا : اذ تحفر من جنة عدن الأنفاق والمجاري بمثابة أنابيب تجري فيها رائحة الجنة، رائحة المسك والكافور ، كما يصف ذلك مثلا كتاب الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة المنسوب للغزالي[1] . وفي الكتاب الذي نحن بصدده والصادر بتحقيق الدكتورة كينبرج أيضا وصف باب من أبواب الجنة يفتح على قبر أحد الصالحين (ص ٩٣) .

هذا ، اذن، هو حل الاسلام بالنسبة لمشكلة خروج الصالحين حاليا من "نطاق الزمان" ، وحتى وصولهم الى الجنة : انهم لا يخرجون من هذا النطاق خروجا مطلقا ولا يصلون الى الجنة أيضا (كما في النصرانية واليهودية) ، وانما يمكثون مكوثا موقتا في القبر يحصلون خلاله على "سلفة" صغيرة وجزئية على حساب الجنة ... ومن الواضح أن المشكلة نشأت بشكل خاص ، كما ذكرنا أعلاه ، فيما يتعلق بالأنبياء . ولا بدّ أن الناس سألوا : هل من الممكن أن لا يكونوا هم أيضا في نطاق الواقع حاليا ؟ أين هم حاليا ؟ ولم يكن غريبا أن يتناول جلال الدين السيوطي

---

١ صدر هذا الكتاب بتحقيق المستشرق غوتييه ونسبه للغزالي . أما اليوم فيرى الباحثون (أنظر عند بويج وعند عبد الرحمن بدوي اللذين وصفا جميع مؤلفات الغزالي) أنه ليس من تأليف الغزالي . وقد رأينا طبعات شعبية للكتاب وأجزاء منه تباع بجانب المساجد في مصر .

هذه المشكلة بالذات في كتابه انباه الأذكياء بحياة الأنبياء ، وكان قصده حياة الأنبياء في قبورهم طبعا . ويبدو أنه اعتبر ذلك بمثابة الفتوى أيضا ، فحاول البرهنة على أن الأنبياء يعيشون في قبورهم اذا كان هناك من لا يثق بذلك . ومن بين الاثباتات أحاديث الاسراء والمعراج أيضا التي تروى كيف مرّ النبي محمد فوق قبور الأنبياء فرآهم قائمين يصلون في قبورهم . هكذا رأى مثلا ابراهيم وموسى وداود وعيسى . وهناك اختلاف في هذه الأحاديث حول عدد هؤلاء الأنبياء (ومن كان هؤلاء) ، والقارئ يذكر ولا شك الرواية عن اللقاء بين رسول الله والنبي موسى في السماء وحديثهما عن فرائض الاسلام كالصلاة ، بل ان القارئ قد يجد تناقضا في ذلك (موسى في السماء ــ او موسى في القبر) . ولكن الجواب بسيط للغاية اذ لا يعدم الفقهاء جوابا ما دائما . اما الاثبات الآخر عند السيوطي بأن الانبياء يعيشون في قبورهم فهو اثبات تجريبي تماما : اذا سار المرء ليلا في المقابر سمع صوتا خافتا ، فاذا أصغى اليه جيدا بدا له ذلك همسا وصلاة (مخطوطة جامعة استانبول ، عربجة ، ١٤٧٦ ، ورقات ١٦ ــ ١٩ ، وانظر أدناه ، فصل ٧ عندنا) . وقد ورد في بعض الأخبار أن الأرواح تلتقي في السماء ، بعد الموت بقليل ، ثم تهبط الى الأرض وتعود الى القبر . أما أرواح الصالحين فتصل أحيانا الى السماء السابعة حيث يرحب بها ثم ترجع (كما ورد في الدرة الفاخرة المذكورة وكذلك في التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة ، وهي تلخيص كتبه عبد الوهاب الشعراني عن تذكرة الامام القرطبي ، ص ٣١ ــ ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦) .

ومن الناحية الأخرى يهمنا ما يحدث للأشرار . ان قصص عذاب القبر ، والأسئلة التي يلقيها على المتوفى في القبر الملكان منكر ونكير (وفي بعض الروايات : "أنكر" أيضا) لا توجد في الكتب الدينية وحسب ، بل في الاعتقادات الشعبية أيضا . وقد جمع المستشرق "ماسينيون" أشعار المقابر (التي تنشدها النسوة عند زيارة المقابر) التي ترد منها ، بين ما يرد ، أسماء مختلفة لهذه الملائكة .

أما الحديث عن باقي الناس ، من غير الأنبياء والصالحين أو الأشرار البارزين ، فهو ضئيل في هذا النوع من الأدب ، ولكن حتى من الكتاب المذكور بتحقيق الدكتورة كينبرج يمكننا أن نستخلص بأنهم اعتقدوا بأن لهم نوعا من "الحياة" في القبر وحاولوا وصفه .

ولهذا الموضوع صلة بالفن والأدب أيضا . فقد وقعنا منذ عهد قريب على تحليل عميق شامل لرسوم (منياتورات) تركية ذات طابع ديني . ويظهر في أحد هذه الرسوم رجل صالح يعظ في المقبرة ــ ومن حوله الموتى يجلسون شاحبين وقد خرجوا توا من قبورهم . لقد حاول الباحث الزعم بأن العظة بعثت الحياة في الموتى وان في ذلك عجيبة.وقد كنّا مضطرين الى اقتراح امكانية أخرى على الباحث أكثر ملاءمة للجو الاسلامي : ان الموتى "يعيشون" في قبورهم كما هو معروف ، وقد خرجوا لسماع هذا الرجل الصالح ، وفي ذلك عجيبة أيضا .

أما في الأدب ــ فليس من اليسير الغوص في نفسية أبي العتاهية شاعر الزهد المعروف في العصر العباسي . ففي شعره يتردد كثيرا ذكر الحجارة والصخور والجنادل والألواح الحجرية والتراب والرمم ... الخ وفي مترادفات كثيرة ، بحيث يتبهمه القارئ بالوصف المبالغ والمرضي للقبور وساكنيها . كذلك فقد اتهم أيضا ، حتى في الكتب العباسية ، بتجاهل الآخرة والقيامة ويوم الحساب وغيرها . والجواب واضح : فقد ثبت أن اتهامات الكتب العباسية له غير صحيحة (ان وصف يوم الدين والصور الدينية الاسلامية الأخرى تتخلل أشعاره بوفرة) ، اما فيما يخص انطباع القارئ اليوم حول ترديد أوصاف القبور عنده فنقول : على القارئ أن يتعود على الصورة الخاصة للموت في الأدب الاسلامي ، انها صورة تعتمد على المكوث سنوات طويلة في القبر (نوع ما من "الحياة" فيه ثواب وعقاب مؤقتان ، حاليا) ، ولذلك فان شعره يوافق الدين وان حاولوا التشهير به . بل ان شعره يذكر بأسلوب الوعظ الديني الذى يؤكد عدم جدوى الحياة الدنيا ، وينبّه الانسان الى عمل الصالحات استعدادا للعالم الآخر (وقد نسبت أقوال من هذا النوع الى علي بن أبي طالب ايضا) .

— ٥ —

بعد عرض هذه المسائل العامّة ، لا بدّ لنا من التأكيد :

اولا : نحن هنا حيال مسألة عامّة ، دينية وفلسفية ، نشأت عنها تطورات متنوعة وأساليب مختلفة في سبيل حلها .

ثانيا : بدون تناول المسألة العامة لن يكون لعرض المادة أمام القارئ المعاصر فائدة تذكر .

ثالثا : لقد حاولت الباحثة بالفعل أن تعرض للقارئ ، في مقدمتها ، صورة ما عن المسألة ، ولكن يبدو أنها لم تعتبر ذلك غاية أساسية في الكتاب (مما يؤسف له) فانتقلت رأسا الى العمل الفني . وعليه فربّما كان من المفيد أن حاولنا رسم هذه الخطوط العريضة هنا .

— ٦ —

ان "استعادة" النص هي اذن الجانب الهام في نظر الباحثة، اذ ان مع ظهور الكتاب حصل القارئ ، حسب رأيها ، على مؤلّفين اضافيين لابن ابي الدنيا كانا قبل ذلك ضائعين . والحق أن كتابي ابن أبي الدنيا حول الموت والقبور كانا ضائعين ولم يكونا في حوزتنا . والسؤال هو : أمن المفيد والجائز من ناحية علمية "استعادتهما" من مصادر متأخرة ؟ ان عملية الاستعادة قد شاعت بصورة خاصة بالنسبة لدواوين الشعراء ، وقد تكون غير مرفوضة بالنسبة لكتاب أخلاقي — ديني أيضا ، وان كانت هذه الاستعادة تتم بدون أي مخطوط للكتاب الأصلي . فبصورة عامة، يكون الاعتماد على مصادر "خارجية" بغية تحسين وتصحيح معطيات نشر كتاب استنادا على أصل مخطوط ، أو على نص كامل ما موجودين لدى المحقق . أما هنا فقد تحولت الأداة المساعدة الى المادة الرئيسية .

وبخصوص العصور الوسطى، علينا أن ننوه بالعادة الشائعة في نقل أحاديث وأخبار ومواد أخرى بكميات كبيرة . ويبرز الأمر بصورة خاصة عند الغزالي الذي يبدو عمله — من خلال الكتاب الذي بين أيدينا — كعمل تنقصه الأصالة، ولذلك يصبح مصدرا لاستعادة نصوص لابن أبي الدنيا . ويبرز في هذا المجال أيضا جلال الدين السيوطي الذي كثيرا ما لخص أعمال سابقيه بنزاهة كبيرة (فهو يذكر على الأغلب من أين استقى مواده، كما يضيف دائما من ثمرات جمعه وتفكيره) . ولكن لا يحق لنا أن نحكم على رجال العصور الوسطى بناء على مقاييسنا نحن بخصوص "الأصالـة" .

وبالنسبة لاستعادة نص آخر لابن أبي الدنيا فقد صادفتنا تجربة غريبة : ان كتاب السمت في الصمت للسيوطي يعد تلخيصا لكتاب الصمت لابن أبي الدنيا ،

ولا يخفي السيوطي ، كعادته، أنه قد استقى عنه الكثير[1] . وخلال مدة من السنين اعتبر كتاب السيوطي ـ بانعدام أية وسيلة أخرى ـ بديلا لكتاب ابن أبي الدنيا الضائع . وعند الاشتغال بهذه المشكلة الأخلاقية ـ الأدبية استخدمنا كتاب السيوطي وان كان من الواضح أنه "عدّل" العمل الأصلي وأضاف اليه شيئا من عناصر "الأدب" لم يكن ابن أبي الدنيا ليسعد بوجودها الى جانب المواد المأخوذة من كتابه . فلقد أضاف السيوطي مثلا نوعا آخر من السكوت مصدره "آداب السلوك" في قصور ملوك الفرس وخلفاء بني العباس، كما أضاف أشعارا من عصر المماليك، الخ . وخلال هذا الوقت ظهر الى الوجود كتاب ابن أبي الدنيا الأصلي (تحدثنا عنه في محاضرة في الأكاديمية الاسرائيلية للعلوم في ٢٦ ابريل ١٩٨٣، ستنشر في مجموعة الأكاديمية) بين مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، ولدينا نسخة مصورة منه .

ولقد اتضح أن الكتاب الأصلي لابن أبي الدنيا لا يشبه مطلقا كل ما أمكن "استعادته" استنادا على رسالة السيوطي . وفيما يلي النقاط التي يجدر الانتباه اليها، ليس فقط بالنسبة الى كتاب الصمت، بل كذلك بالنسبة للكتاب الذي استعادته الدكتورة كينبرج :

أولا : الاختلاف في حجم الكتاب (كمية المواد في الكتاب الأصلي أكبر بكثير)

ثانيا : الاختلاف في الترتيب .

ثالثا : في الكتاب الأصلي قسمت المواد الى أبواب لا نجد أثرها مطلقا استنادا الى السيوطي .

رابعا : السيوطي يحذف عن قصد مواضيع كثيرة استصوب ابن أبي الدنيا ادخالها في كتابه، كما أن اختيار السيوطي للمواد هادف نوعا ما .

خامسا : يقتضي أن نأخذ بالحسبان أن السيوطي أضاف بعض المواد .

سادسا : ثمة عناصر من "الأدب" (كتزيين الأسلوب بالشعر والنثر) حتى

---

١ لموضوع الصمت أهمية في مجال الأدب، اذ هاجم الجاحظ نزعة الزهد المفرط بما فيها من سلبية وانعدام المبادرة اللذين يمثلهما الصمت، ونكاد نقول ان الجاحظ هاجم ابن أبي الدنيا بشدة، وان كان قد عاش قبله بقليل فان الأخبار الدينية التي جمعها ابن أبي الدنيا فيما بعد كانت متناقلة أيام الجاحظ .

في العمل الأصلي لابن أبي الدنيا الا أنها لم تنتقل دائما الى السيوطي . فلو "استعدنا" كتاب ابن أبي الدنيا من غير الجانب الأدبي الذي أضافه المؤلف لما استطعنا أن نكون مخلصين للحقيقة .

وفيما يخص المؤلّفين اللذين قامت باستعادتهما الدكتورة كينبرج أيضا ، في وسعنا أن نبدي أملنا بظهور الأصل قريبا ، وأن نبدي مخاوفنا من الاختلاف الذي قد يظهر لأعيننا بين الاستعادة والأصل . ومع ذلك ، فقد أحسنت صنعا باصدار الكتاب ، وذلك لمنفعة الدارسين والمهتمين بالدين ، الى أن يظهر المؤلّفان الأصليان .

— ٧ —

لا شك أن الباحثة المحققة لرسالتي ابن أبي الدنيا قد بذلت مجهودها ووصلت الى نتيجة لا بأس بها في دعم الأخبار المنسوبة الى المؤلف بالمراجع والمصادر، الا أنه ربما كان من المستحسن توسيع الاطار البيبليوغرافي والاشارة الى كل ما يشبه هذه الأخبار، مما يلائم ادخاله في سلسلة اضافية من الملاحظات تحت الملاحظات الواردة في الحاشيتين اللتين أوردتهما المؤلفة وذلك استنادا الى مجاميع الحديث وكتب التفسير ومؤلفات الأدب المختلفة (منها ، مثلا ، محاضرات الأدباء للراغب الاصفهاني ، طبعة بيروت ١٩٦١، ج ٢، ص ٤٨٣ ـ ٥٣٥، وليس ذلك الا بمثابة نموذج فحسب) . وكذلك نشير الى الدرة الفاخرة في كشف علوم (أو : أحوال) الآخرة، وهو كتاب منسوب الى الغزالي (وقد مضى أعلاه القول عن أهميته) ، وقد طبع وهو الآن متوفر في كل المكتبات الكبرى، ونشير الى انباه الأذكياء بحياة الأنبياء للسيوطي (وقد أشرنا الى هذه الرسالة أعلاه، اعتمادا على مخطوطة ولكنها قد نشرت في الهند في ثلاث طبعات على الأقل) ، وكذلك رسالة شرح منظومة السيوطي في القبور (وتوجد مخطوطة منها في القدس) ، وكذلك التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة للامام القرطبي (طبعت ، وقد أشرنا اليها أعلاه) ، ورسالة الاستنجاد بالقبور لابن تيمية (وقد طبعت ، ومنها مخطوطة في القدس) ، ثم رسالة الميت في القبر لابن حجر العسقلاني (طبعت) ، وما يشاكلها من الرسائل والكتب ، وكذلك مقالات ماسينيون ودافيد ستورم رايس . وكل هذه المراجع من شأنها أن لا تضرّنا اذا أخذت بعين الاعتبار عند القيام بالبحث عن الموت والقبور في الأدب العربي الاسلامي .

يوسف سدان